المحاضرة الحادية عشر: فن المسرحية

الأصول التاريخية للمسرح الجزائري

لم تعرف الجزائر المسرح مثلها مثل البلدان العربية الأخرى بالمفهوم الحديث أي باعتباره أدبا وفنا له أصوله إلا في مطلع القرن العشرين. يقول أحمد توفيق المدني: "لعل قطر الجزائر- بعد جزيرة العرب-هو القطر الإسلامي الوحيد الذي لم يدرك بعد أهمية التمثيل وينشأ به المسرح العربي، ولم يشعر شعبه حتى الساعة بوجود ذلك النقص العظيم فيه".[1]

لكن هذا لا ينفي وجود أشكال مسرحية بدائية، إضافة إلى محاولة جادة في الجزائر، خلال القرن التاسع عشر، متمثلة في مسرحية (نزهة المشتاق وغصة العشاق في مدينة تريات بالعراق) لصاحبها إبراهيم دانينوس* وذلك سنة 1835.

أما بالنسبة للأشكال المسرحية البدائية أو العفوية، التي تشكل الأرضية التي قام عليها المسرح الجزائري، فهي متعددة منها:

1- مسرح الكراكوز (القراقوز) وخيال الظل ويعرف كذالك بالمسرح الصيني، عرفته الجزائر مع دخول العثمانيين، خاصة وأنهم حملوا بعد استقرارهم بالجزائر عاداتهم وآدابهم وفنونهم بما في ذلك هذا النوع من المسرح الذي كانت عروضه تقدم خلال شهر رمضان خاصة، وقد استمرت هذه العروض حتى القرن التاسع عشر كما أشار إلى ذلك العديد من الرحالة منهم (بوكلير ميسكاو Puklr Muskau الذي شاهد حسب أرليت روت* عروض المسرح بالجزائر العاصمة سنة 1835 والتي استمرت حتى منعها من طرف الاستعمار الذي اعتبرها عاملا محرضا على الثورة[2].

2-الأشكال التمثيلية التي يزخر بها التراث الجزائري والتي مهدت لظهور الممثل وولادة المسرح الحقيقي والمتمثلة في الاحتفالات الدينية ولاجتماعية، والحركات الخارقة لعيساوة، والطواف والوقوف عند مقابر الأولياء، والاحتفالات المرتبطة بيوم عاشوراء التي كانت تشتمل على عدة

---

[1] - أحم دتوفيق المدني: كتاب الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص366.

* - يهودي جزائري (1789-1872) التحق بخدمة الجيش الفرنسي كمترجم إبان الحملة الفرنسية على الجزائريسنة1830.

* - أرليت روث باحثة أجنبية لها كتاب (المسرح الجزائري) مطبعة فرانسوا ماسبيرو، مارس 1967.

[2] - ينظر: عبد الله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث، ص214.

عروض تمثيلية[1]. إضافة إلى ذلك نجد المداح الذي كان يجوب الأسواق، والراوية والحلقة، ثم الاحتفالات المرتبطة بالمناسبات الفصلية الفلاحية التي كانت تقام على طول كالتويزة و الأم تانونجا*

عوامل ظهور الفن المسرحي في الجزائر

تطور الفن المسرحي في الجزائر لجملة من الأسباب أهما زيارة:

1- فرقة القرداحي: زارت هذه الفرقة كلا من تونس والجزائر سنة 1918، وحققت نجاحا باهرا إذ استطاعت استقطاب جمهور لا بأس به تتبع عروض الفرقة باهتمام بالغ.

2- فرقة التمثيل المصري لجورج أبيض: قام الفنان المصري جورج أبيض بجولة عبر البلاد العربية مع فرقته، فزار ليبيا وتونس ثم الجزائر سنة 1921، وقدم عدة عروض مسرحية بقاعة المسرح الجديد بالجزائر العاصمة، هي (ثارات العرب، وصلاح الدين الأيوبي). وامتد نشاط الفرقة ليشمل تلمسان وقسنطينة حيث قدم عروضا مماثلة. وحظيت هذه الزيارة باهتمام كبير من قبل الدارسين للشأن المسرحي، نظرا للتأثير الذي تركته على المسرح الجزائري، يقول مرتاض: "فقد أيقظت هذه الزيارة المستنيرين من الشعب الجزائري، وجعلتهم يشعرون بأهمية المسرح ورسالته، فحاولوا تأسيس بعض الفرق المسرحية التي قدمت بعض التمثيليات،..والدليل على أهمية هذه الزيارة أن الجزائر لم تعرف قبلها أي فرقة مسرحية رسمية"[2].

3- فرقة عز الدين المصرية التي زارت الجزائر سنة 1921 "وقدمت بعض العروض المسرحية مصحوبة بمجموعة من الأغاني والمواويل الشرقية التي كان يؤديها سلامة حجازي، وقد لاقت هذه الزيارة نجاحا كبيرا وأقبل الجزائريون على متابعة عروضها لإعجابهم بأغاني سلامة حجازي التي كانوا يعرفونها جيدا عن طريق الأسطوانات، التي كانت متداولة آنذاك"[3].

---

[1] - أرليت روث: المسرح الجزائري، نقلا عن (بن داود أحمد دور المسرح في المقاومة الثقافية للاستعمار الفرنسي (1926-1954) مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، 2008-2009، ص5.

* - عبارة عن دمية تحملها البنات إبان موسم الجفاف وتطفن بها وترددن بعض الأغاني لطلب لغيث.

[2] - عبد الملك مرتاض: فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص200.

[3] - ابن داود أحمد دور المسرح في المقاومة الثقافية للاستعمار الفرنسي (1926-1954) مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، 2009/2008، ص9.

4-متطلبات حفلات المدارس العربية:لم تتكاثر المدارس الحرة إلا بعد تأسيس جمعية العلماء سنة 1931، وزاد انتشارها بعد الحرب العالمية الثانية،" فكان مدير كل مدرسة ابتدائية أو أحد معلميها المستنيرين يكتب مسرحية، ليمثلها التلاميذ إما بمناسبة انتهاء السنة الدراسية، وإما بمناسبة عيد المولد النبوي، ولكن المناسبة الثانية هي التي ظهرت فيها معظم المسرحيات الدينية التي لايمكن أن يحصرها باحث، لنها كانت تكتب، ثم تمثل، ثم تهمل وتنسى دون أن يحتفظ كتابها بنصوصها"[1].

بناء على المؤثرات السابقة وغيرها، تأسست أول فرقة مسرحية في الجزائر سنة1921 تحت اسم (جمعية الآداب والتمثيل المسرحي) التي استطاعت خلال ثلاث سنوات أن تقدم ثلاث مسرحيات من تأليف رئيسها (علي شريف طاهر) من بينها مسرحية (خديعة الغرام). وكانت هذه المسرحيات تعالج موضوعات اجتماعية غالبا كمشكلة الإدمان على الخمر وما ينشأ عنها من مضار[2].

ولعل أول مسرحية فهمها الشعب الجزائري وتذوقها ، كانت مسرحية (جحا) التي مثلت في أبريل 1926 وقد ألفها (علالو ودحمون)، وأعيد عرضها عدة مرات وربما كان ذلك دليلا على نجاحها[3].

ولم يلبث الفن المسرحي الشعبي أن انتقل في سنة 1926 إلى رشيد القسنطيني ومحي الدين باش تارزي، ويمتاز الأول بكونه كان يؤثر التأليف المبتكر المحض، في حين أن الثاني لم يكن يؤلف، وإنما كان يقتبس من الآثار العالمية. ويعتبر رشيد القسنطيني رائد المسرح الشعبي في الجزائر بلا منازع، وكان موهوبا في فن الإضحاك، أو فن الهزل.

ثم ما إن حلت الأربعينيات من القرن العشرين حتى اتسع نطاق المسرح وأصبحت المدن الجزائرية تعرف الفن المسرحي وتتذوقه، مثل الجزائر، قسنطينة عنابة وتلمسان.

وأهم المسرحيات التي كتبت في هذه الفترة التي تقارب ربع قرن (مضار الخمر والحشيش) لمحمد العابد الجيلالي و(شبان اليوم والواجب) لمحي الدين باش تارزي، و (طارق بن زياد) لمحمد صالح بن عتيق، وسبع عشرة مسرحية لأحمد رضا حوحو منها: (صنيعة البرامكة، وبائعة

---

[1] – عبد الملك مرتاض: فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص200.

[2] – ينظر: المرجع نفسه، ص 198.

[3] – ينظر: المرجع نفسه، ص198.

الورد، وأدباء المظهر، والأستاذ، والبخلاء الثلاثة). ثم (امرأة الأب، والآمر بأحكام الله) لأحمد بن دياب. و (زينب الفتاة) لعبد الرحمان إبراهيم بن العقون، و(المولد النبوي) لعبد الرحمان الجيلالي، و(الناشئة المهاجرة، والخنساء)لمحمد الصالح رمضان، و(حنبعل) لأحمد توفيق المدني، و(بلال بن رباح) لمحمد العيد آل خليفة. و(يوغورطة) لعبد الرحمان ماضوي. وهذا لا يعنى أننا ذكرنا كل ما كتب في تلك الفترة[1]....

اتجاهات الفن المسرحي في الجزائر

يمكن تميز ثلاثة اتجاهات في المسرح الجزائري الحديث من حيث الموضوعات التي تم تناولها:

1- **اتجاه تاريخي:** تناول موضوعات تاريخية لربط الأجيال بالماضي وتذكيرها بتاريخها والإلمام ببطولات الأجداد. يقول عبد الله ركيبي: "كان متوقعا أن تظهر مسرحيات تاريخية كثيرة أثناء هذه العقود التي نشأت فيها الحركة الإصلاحية، وامتدت حتى قيام ثورة نوفمبر 1954"[2]. وأهم المسرحيات في هذا الاتجاه:

أ- مسرحية (بلال بن رباح) لمحمد العيد آل خليفة التي"اعتبرها النقاد اول نواة شعرية استلهم فيها التاريخ العربي الإسلامي وحاول أن يجسد موقف الصحابي المشهور بلال بن رباح الذي تحمل في سبيل العقيدة ما لم يتحمله سوى القليل من المؤمنين، بالإضافة إلى الأسلوب الذي كتبت به وهو أسلوب شاعري يراعي فيه محمد العيد اختلاف الشخصيات وتنوعها، ويركز فيه على المعاني التي ترمز إليها مواقف بلال من جلاديه ومضطهديه ليدعو من خلال ذلك الشعب الجزائري إلى اقتفاء أثر الأسلاف ومقاومة المستعمرين بالصبر والنضال من أجل الوكن والعقيدة"[3].

ب- مسرحية (حنبعل) لأحمد توفيق المدني، التي وجدت إقبالا كبيرا حين طبعت وحين مثلت لأنها تعرض لفترة تاريخية امتازت بصراع بين القرطاجيين وهم سكان تونس في القديم، وبين روما التي كانت تمثل إحدى القوتين الكبريين في التاريخ قبل الإسلام[4]. ومسرحية يوغورطة لبعد

---

[1] - ينظر: المرجع السابق، ص202.

[2] - عبد الله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث، ص220-221.

[3] - المرجع نفسه، ص 220.

[4] - المرجع نفسه، ص221.

الرحمان ماضوي التي يذكر صاحبها أنه ألفها قبل الثورة وأن نشرها بعد الاستقلال لا يقلل من قيمتها لأنها تتحدث عن كفاح الشعب الجزائري في تاريخه القديم لما صارع الرومان ولم يخضع للاحتلال الأجنبي كما هو شأنه في تاريخه الحديث، فهو يسقط على الواقع الذي كتبت فيه هذه المسرحية قبل الثورة[1].

ج-عنبسة لرضا حوحو التي اعتمد فيها على خياله دون أن يكلف نفسه مشقة قراءة تاريخية عميقة للحوادث الهامة التي عرفتها الأندلس خلال ثمانية قرون من الوجود العربي فيها، وحودث التاريخ المتعلقة بعصر عنبسة بوجه خاص، فهو صور الفترة الزمنية التي كان يعيش فيها عنبسة منحطة، مع أنها كانت مزدهرة قوية حيث استطاع عنبسة أن يقوم ببعض الغزوات[2].

د- مسرحية (الخنساء) لمحمد الصالح رمضان كتبها بتلمسان، ومثلت أول مرة بدار الحديث التي كان المؤلف مديرا لها وقد مثلها تلاميذ المدرسة بمناسبة المولد النبوي، وهي مسرحية تاريخية مقتبسة من التاريخ الإسلامي، يجري الفصل الأول في سوق عكاظ، والثاني بمكة المكرمة والثالث (الأخير) بالمدينة بمحضر عمر بن الخطاب...[3]

2- اتجاه اجتماعي عالج موضوعات اجتماعية عني فيه أصحابه بنقد المجتمع وتقاليده وعاداته "ولعل هذا الاتجاه كان غالبا في المسرحيات التي مثلت بالمسرح أو في الإذاعة بالرغم من أنها نصوص قليلة، وأن معظمها كتب بلهجة عربية دارجة، تهدف في معظم الأحيان إلى إصلاح المجتمع وتدعو إلى التحرر من سيطرة الماضي وسحره، والتخلص من رواسبه، كما أنها تهاجم المساويء التي غزت البيئة الجزائرية بسبب الاستعمار وأفكاره التي حاول أن يغرسها في هذه البيئة[4]. من ذلك:

أ- مسرحيه (امرأة الأب) لأحمد بن دياب القنطري، وهو موضوع قديم عالجه الكتاب في بيئات مختلفة.

ب- مضار الخمر والحشيش لمحمد العابد الجيلالي.

---

[1] - المرجع السابق، ص226.

[2] - عبد الملك مرتاض: فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص216-217.

[3] - المرجع نفسه، ص 220.

[4] - المرجع نفسه، ص230.

3- موضوعات دينية: لربط الأجيال بعقيدتها ووأخذ الأسوة الحسنة، والقيم والأخلاق...من ذلك (طارق بن زياد) لمحمد الصالح بن عتيق.والخنساء لمحمد الصالح رمضان.والمولد النبوي لعبد الرحمان الجيلالي. والناشئة المهاجرة لمحمد الصالح رمضان.

4- موضوعات أدبية: تعلقت بالمشاكل التي تساور الأديب والعيوب التي تقع في احتراف الأدب، من ذلك: أدباء المظهر، والأستاذ لأحمد رضا حوحو.